

«تصحيح المسار»: الروح الغائبة

تشدد حاجتنا الآن إلى تصحيح المسار الذي تعوقه أخطاء تراكمت على مدى سبعة أشهر. ولكن هذا التصحيح لا يتحقق عبر نزول بعضنا إلى ميدان التحرير اليوم، بل من خلال حوار جاد لبناء توافق بين قوى الثورة كلها ليبرالية وإسلامية ويسارية لخوض الانتخابات «يدا واحدة» في مواجهة قوى النظام القديم وأحزابها «الجديدة». وهذا هو السبيل الوحيد إلى استعادة روح الثورة وليس تصحيح المسار فقط.

فلا يصدق بعض الثوريين أن الثورة روح أكثر مما هي موقف أو فعل أو مكان تتجسد فيه ميدانا كان أو ساحة أو غيرهما. وكان أروع ما في ثورة 25 يناير روحها التي تجلت في ميدان التحرير وغيره من ميادين هذه الثورة.

لم تكن الحشود الكبيرة أو «المليونيات» هي أهم ما في ثورة 25 يناير. شهدنا حشودا ضخمة في بعض أيام الجمعة منذ مارس الماضي. وكان آخرها في 29 يوليو. ولكن شتآن بينها وبين تلك التي تجلت فيها روح الثورة.

صحيح أن الحشود الهائلة هي مما يميز الثورات عن المظاهرات وغيرها من أشكال الاحتجاج الشعبى، ولكن أى حشد كبير لا يتحول إلى ثورة إلا إذا سادته روح التفانى ووحدة الهدف العام وتقديمه على المصالح الخاصة والاستعداد للتضحية من أجله.

وعندئذ يتحلى هذا الحشد بالأخلاق الثورية التى شاعت فى ميدان التحرير وغيره على مدى 18 يوما.

كان إسلاميون وليبراليون ويساريون جنبا إلى جنب فى لحظات بدا الموت فيها قريبا وخيمت رائحته فى المكان الذى جمعهم. لم يفكر أى منهم فى هوية مصر التى استشهد بعضهم من أجلها، وهل هى إسلامية أم مدنية، دينية أم علمانية.

لم يكن أى منهم معنيا بشيء من ذلك لأن روح الثورة كانت حاضرة وأخلاقها شائعة. وهذا هو ما يميز حشدا أو تجمعا ثوريا على غيره يفتقد الروح التى تتجلى فى لحظات معينة هى قليلة فى التاريخ.

ولكن ما إن بدأ الانعتاق من نظام اندلعت الثورة ضده حتى انحسرت روحها بأسرع مما هو مفترض فى الحالات الثورية غير المكتملة التى تتطلب المحافظة على بعض تجليات هذه الروح ولو لأشهر معدودات. فليس طبيعيا أن تبقى روح أى ثورة طويلا. فهى، بطابعها، قصيرة المدى.

غير أنه ليس طبيعيا كذلك أن تغيب بشكل كامل خلال أيام ولا تترك أثرا بعدها فيعود الجميع تقريبا إلى ممارساتهم وسلوكياتهم السابقة. ولكن حين يحدث ذلك، يصبح الخطر كبيرا على الوطن الذى اندلعت الثورة من أجله، وليس فقط على هذه الثورة نفسها، وخصوصا عندما تكون الثقافة المجتمعية السائدة فاسدة بئسة.

ولعل أحد أسوأ ما خلفه نظام مبارك هو هذه الثقافة المجتمعية التى تسودها أمراض الطمع والخوف والشللية وإعلاء المصالح الخاصة والشخصية وإغفال المصلحة العامة. فقد أخرج هذا النظام أسوأ ما فى المصريين، وحجب أفضله الذى ظهر فى أيام الثورة ضده ثم انحسر مع ابتعاد روح هذه الثورة.

عاد المصريون بسرعة خارقة إلى ما كانوا فيه. لم يتخلصوا من الخوف الذى زرعه فيهم النظام السابق، بالرغم من أنهم أسقطوا رأسه. وها هم يتمادون فى الخوف من بعضهم البعض، بعد أن أدمن كثير منهم الفرع والتفريع ممن يختلفون معهم.

ولا يزال الطمع وتقديم المصالح الخاصة ظاهرا فى سلوك آحادهم، كما فى مواقف كثير من أحزابهم وجماعاتهم تجاه قضايا الدستور والانتخابات والنظام الجديد، فى الوقت الذى تشتد فيه الحاجة إلى تعاون واسع النطاق لحمل تركة ثقيلة بئسة.

فلا إمكانية لمعالجة الخراب الذى خلفه النظام السابق فى ظل هذا التناحر الذى يفاقم التناقضات بين الأطراف والقوى التى يصعب بناء مصر الجديدة بدون توافق بينها. والحال أنه لم يعد ثمة وقت يمكن تبديده فى تناحر حول «مليونىة» أو جمعة لتصحيح مسار لا يمكن تصويبه بدون تحقيق توافق وطنى عام بين قوى الثورة فى مواجهة النظام القديم، وخصوصا فى ظل غياب الروح التى تضى على أى حشد الطابع الثورى الحق. وهذا هو السبيل الوحيد لكى تأتى الانتخابات المقبلة ببرلمان يعبر عن القوى التى تطمح إلى بناء مصر الحرة العادلة حتى لا تُفاجأ بعودة النظام القديم مع «ديكور» جديد عبر هذه الانتخابات.

فهذا هو وقت الحوار الجاد لبناء التوافق بين القوى الراغبة فى بناء مصر الحرة العادلة حتى لا نفقد ما بقى من الثورة بعد أن غابت عنها روحها.